

نصير الكعبي | Naseer Alkaabi⁽¹⁾

الموسوعات التاريخية العراقية المعاصرة تعقب في تحولاتها من الشمولية إلى المناطقية

Modern Iraqi History Encyclopedias

Tracing their Development from Totalitarianism to Regionalism

لا تهدف هذه الدراسة إلى تناول تاريخ الكتابة التاريخية في العراق في الإجمال، فتدرس الاتجاهات أو المدارس أو المؤرخين، وهي موضوعات بُحثت بصور مختلفة، بل تهدف إلى تجاوز هذا النوع من التناول الإجمالي، نحو اختيار ظاهرة أو عينة دقيقة لم يجز التركيز على دراستها أو بحثها، لتحاول فحصها أفقيًا وعموديًا، عبر معاينة زمنها التاريخي، والبحث في جذورها الأولى ومسيرتها ومآلاتها الحالية. من هنا، تتمحض هذه الدراسة للنظر في "الموسوعات التاريخية العراقية المعاصرة".

يبدو مفهوم "الموسوعة"، في بعض الأحيان، مفهومًا ملتبسًا، من جهة دلالته ومحتواه الدقيقين. تعرّف دائرة المعارف البريطانية "الموسوعة"، في ما يمكن عدّه التعريف الأكثر إيجازًا ومقبولية، بأنها "عمل مرجعي يحتوي على معلومات عن جميع فروع المعرفة أو يعالج فرعًا مُحددًا من المعرفة بصورة شاملة"⁽²⁾. ولذلك، تُعنى الموسوعة بأسئلة مرجعية وأساسية في ميدانها. وهي تتجه، في الإجمال، إلى القراء المختصين والجمهور العام، على حد سواء. وتعتمد الموسوعة، في بعض الأحيان، على مجموعة من الكتاب المحررين، كل في ميدان تخصصه. وفي الأعم الأغلب، تُنجز الموسوعات تحت دعم الدولة وإشرافها المباشر، أو بوساطة أحد المراكز البحثية أو الجامعات الرسمية.

وتختلف الموسوعة عن دائرة المعارف، فنظام التأليف في الأخيرة - على غرار المعجم - يقوم على الترتيب الأبجائي. ومن ذلك، معاجم الرجال، ودوائر معارف العلوم والفنون والآداب، ومعاجم اللغة. أما الموسوعة فلا تلتزم ببحثها بأيّ نظام في طريقة التأليف غير نظام الموضوعات، فتقديم أي بحث أو تأخير يربطان بمقتضيات بحثية خالصة. هذا فضلًا عن أن الموسوعات تكون واسعة الغرض، كثيرة الإحاطة.

ينسجم هذا التعريف العام مع مجموعة من الأعمال الموسوعية التاريخية العراقية، مع أنها قد لا ينطبق عليها كل عناصر التعريف. تسعى هذه الدراسة للإجابة عن سؤال ماهية المؤثرات الفاعلة في تبلور نوع على هذا النحو من أنماط الكتابة التاريخية العراقية، عبر رصد أبرز النماذج فيها، ذات التأثير والحضور على مستوى زمني متواصل يتجاوز خمسة عقود، تمثل ذروة النتاج التاريخي في الكتابة. وتعين الدراسة تحولات الموسوعة وانتقالها من الشمولية إلى المناطقية. وبهذا المعنى، اختارت ثلاثة نماذج، تعبر تعبيرًا دقيقًا وأ نموذجيًا عن واحد من مظاهر الكتابة التاريخية العراقية، ليس على مستوى التاريخ الحداثي فحسب، إنما على مستوى التحول الرؤيوي المحاط

1 أستاذ التاريخ في جامعة الكوفة، وعميد كلية الآداب في الجامعة نفسها.

Professor of History and Dean of the Faculty of Arts at the University of Kufa.

2 "Encyclopaedia," *Encyclopedia Britannica*, accessed on 11/7/2021, at: <https://t.ly/r5XK>

بظروف واقعية ساهمت في تحوله. وهذه النماذج هي: موسوعة **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، المدونة في الفترة 1950-1973، وهي أولى الموسوعات التاريخية العراقية التي اختصت بموضوع شمولي عاجته بطريقة تكاد تنطبق عليها صفات الموسوعات العامة، وقد أنجزت بجهد فردي من دون دعم مؤسسي؛ وموسوعة **حضارة العراق** (1985) التي كُتبت تحت إشراف الدولة وأيديولوجيتها الحاكمة يومذاك؛ و**المفصل في تاريخ النجف الأشرف** (2003-)، وقد صدرت ما بعد عام 2003 وأنجزت بمجهود فردي.

وإذا وضعنا كتابة الموسوعات التاريخية في العراق في سياقها التاريخي، منذ مرحلة التحول من النظام الملكي إلى الجمهوري، بوصفها المرحلة الزمنية التي تبلورت فيها معالم الكتابة التاريخية العراقية، ولا سيما مع تأسيس القسم الأم للتاريخ في جامعة بغداد وعودة المبتعثين، فسنجد أن معالم الكتابة التاريخية في هذه المرحلة بدأت في الثبات والإعلان عن نفسها بقوة، وقد وقع العديد منها تحت وطأة المؤثرات والتيارات الفكرية والسياسية الرائجة يومذاك، سواء الإقليمية منها أو الدولية⁽³⁾.

أولاً: موسوعة "المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام"

صدرت موسوعة **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** (1950-1973) في سياق صعود المد القومي الذي شهده العالم العربي. وقد كان مؤلف الموسوعة، جواد علي، قومي التوجه، وانخرط، إثر عودته من ألمانيا حاصلاً على شهادة الدكتوراه في عام 1939، في حركة مايس 1941، حاله حال العديد من النخبة العراقية القومية. وقد اعتُقل بعد فشل الحركة، متَّهماً بمناصرة النازية ومحور ألمانيا⁽⁴⁾.

هذه الملاحظة عن السياق مهمة جداً لفهم الغرض الرئيس من تأليف الموسوعة؛ فتدوين تاريخ العرب قبل الإسلام هو "واجب قومي" لدى جواد علي؛ فهو يقول حين أتم المشروع: "أحمد الله الذي مكنتني من تحقيق الفكرة التي تعشقتها والمشروع الذي وضعت أسسه وتفاصيله منذ أمد: مشروع تدوين تاريخ العرب قبل الإسلام. [...] واني لأشعر والله بسعادة عظيمة لأني قد أدت بعض ما علي وساهمت في هذا الواجب القومي الذي هو في رأبي من أعظم الواجبات"⁽⁵⁾.

وفي الخلاصة، تتواءم الموسوعة، في إجمالها ومعزاها الرئيس، وإلى حد بعيد، مع الأيديولوجيات السائدة في العراق والعالم العربي يومذاك. وقد انعكس هذا، على نحو مباشر، على حرص المؤلف على تقديم صورة متماسكة عن العرب وتاريخهم الغابر، بوصفهم كياناً مترابط الجذور والعادات والقيم، وإن علاقاتهم وصلاتهم القومية عابرة للمناطقية. وقد دافعت الموسوعة، بشغف، عن تخوم العرب القومية والقربانية، في احتساب العرب من الساميين أو من غيرهم، واشتراكهم في الوطن والجغرافيا والهجرة والأسرة اللغوية الواحدة، إلى أن حسمت "إن القبائل العربية المهاجرة هي قبائل عربية معروفة الأصل، وقد نصت الكتابات والموارد الأخرى على عربيتها"⁽⁶⁾. وبعبارة، جعلت الموسوعة من العامل القومي أهم العوامل في اختيار عيناتها للدراسة، ولا سيما المواقف من السامية. ويخلص جواد علي، في نهاية ذلك النقاش، إلى القول: "إن العروبة في نظري ليست بحاجة إلى ضم هذه الشعوب إليها، لإثبات أنها ذات أصل تؤول إليه،

3 عن طبيعة تلك الظروف المحيطة، ينظر: نصير الكعبي، "الكتابة التاريخية الحديثة في العراق: فحص في السياقات المتحولة والمقاربات المنهجية"، في: **التاريخ العربي وتاريخ العرب: كيف كُتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة**، إعداد وتنسيق وجيه كوثراني (الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017)، ص 607-629.

4 جواد علي، **أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام**، دراسة ومراجعة نصير الكعبي (بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2011)، ص 20-32؛ وينظر: سيار الجميل، **المجالية التاريخية: فلسفة التكوين التاريخي: نظرية رؤيوية في المعرفة العربية الإسلامية** (بيروت/ عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999)، ص 442-444.

5 جواد علي، **تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 2 (بغداد: مطبعة التفتيش، 1951-1952)، ص 6.

6 جواد علي، **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ج 1، ط 2 (بغداد: جامعة بغداد، 1993)، ص 7.

فقد أعطى الله تلك الشعوب تاريخاً ثم محاه عنهم، وأعطى العرب تاريخاً في القديم واستمر حتى اليوم [...]، فليس في العرب مركب نقص حتى نضيف إليهم من لم يثبت أنه منهم⁽⁷⁾.

ألفت هذه الموسوعة وصدرت في مرحلتين متعاقبتين وشكلين مختلفين، إذ صدرت أولاً في ثمانية أجزاء، في الفترة 1950-1959، وكانت بعنوان **تاريخ العرب قبل الإسلام**. ثم تبنى جواد علي فكرة "التفصيل" (من هنا، سُميت "المفصل")، تأثراً بالموسوعات التي تعتمد - في رؤيتها ومنهجها - على البحث الفيلولوجي الذي رَسخته المدرسة الألمانية، وصيغت على وفقه العديد من الدراسات الاستشراقية للتاريخ العربي والإسلامي؛ إذ كان همها الرئيس تحشيد كل الموارد والأخبار المتنوعة عن مطلب من المطالب التاريخية، لتقديم تركيبة أو توليفة شبه متكاملة عن كل مطلب في صيغة تكاملية في تنظيم الروايات المختلفة مرجعياً وزمناً، وفي النهاية، لبورة صورة متكاملة عن العرب بوصفهم كتلة تاريخية مترابطة لها جذورها القومية الضاربة في القدم. وفي هذا الإطار يقول المؤلف: "قلت في مقدمة الجزء الأول من كتابي السابق [تاريخ العرب قبل الإسلام]: "والكتاب بحث أردت جهد طاقتي أن يكون تفصيلياً. [...] وقد فعلت في هذا الكتاب ما فعلته في الأجزاء الثمانية من الكتاب السابق من تقصي كل ما يرد عن موضوع من الموضوعات في الكتابات وفي الموارد الأخرى، وتسجيله وتدوينه ليقدم للقارئ أشمل بحث وأجمع مادة في موضوع يطلبه، لأن غايتي من هذا الكتاب أن يكون موسوعة في الجاهلية والجاهليين، لا أدع شيئاً عنها أو عنهم إلا ذكرته في محله"⁽⁸⁾.

ثانياً: موسوعة "حضارة العراق"

تكاد موسوعة **حضارة العراق** تعدّ أكبر عمل موسوعي تاريخي أنجز تحت إشراف الدولة العراقية ورعايتها، منذ تأسيسها في الربع الأول من القرن العشرين. وقد نُشرت دفعة واحدة في عام 1985. وإجمالاً، أنجزت في الثمانينات من القرن الماضي سلسلة من الموسوعات، فظهرت **موسوعة الموصل الحضارية**، و**موسوعة البصرة الحضارية**، و**موسوعة مدينة تكريت**، و**موسوعة الجيش والسلاح**، و**موسوعة العراق في مواجهة التحديات**.

لقد ساعد على إتمام هذه الموسوعة وصدورها تراكم أعداد المؤرخين في الجامعات العراقية، بعد عقود من تأسيس أقسام التاريخ فيها، وهيمنة فلسفة حزب البعث على المناهج الدراسية، ولا سيما في فروع العلوم الإنسانية، والتاريخ تحديداً، التي خضع الكثير منها لتلك الرؤية. وقد زاد ذلك طبيعة الاقتصاد الريعي الاشتراكي، الذي أخضع مجمل مناحي الحياة العامة لرؤية الدولة الحصرية.

تعكس موسوعة **حضارة العراق** رؤية حقبة البعث، وأيديولوجيتها القائمة على التاريخ وثنائية (الغرب "الاستعمار" / العرب)، وتحولات هذه الرؤية وانتقالها من القومية إلى القطرية؛ فالموسوعة تقتصر على كتابة تاريخ حضارة "القطر العراقي"، انسجاماً مع التحولات الكبيرة في أيديولوجية البعث القومية والعروبية. وقد بدأت مثل هذه الأعمال تعكس تلك الرؤية وتؤسس لها. وقد قدّمت الموسوعة، في ديباجتها، رؤيتها الدقيقة المستوحاة من أيديولوجية تلك المرحلة، وبيّنت التحول نحو القطرية في تقديم تلك الرؤية: "إنها المرة الأولى في تاريخ الثقافة في الوطن العربي، يصدر كتاب بهذا العنوان يتجه للرأي العام، بمثل هذا الشمول، وفي ذات الوقت يعبر عن وجهة نظر تاريخية تعرضت للحجب المستمر للتاريخ الحديث والمعاصر من أجهزة ثقافية وأكاديمية كانت مدفوعة بموقف يختلط فيه الحماس إلى الحضارة الغربية بنظرة استعلائية استعمارية هدفها فرض نظرية السيادة الأوروبية على العالم. وإذا كانت الصحوّة

7 المرجع نفسه، ص 8.

8 المرجع نفسه، ص 6-7.

السياسية لشعوب الحضارات القديمة قد كسرت جدار الأمن السياسي للمهيمنة الأوروبية، فالوقت الآن ملائم لكسر جدار الطمأنينة الثقافية، وكتاب 'حضارة العراق' صاحب هذه الريادة في الثقافة يسجل الإبداع الحضاري العراقي عبر زمن الوعي الإنساني منذ بزوغ فجر الحضارة لأول مرة بتاريخ البشرية في بلاد وادي الرافدين، وقد حظيت هذه الموسوعة الحضارية بجهد مخلصين عراقيين تعيش في ذكرتهم صورة التخريب الذي تعرض له تاريخ العراق ودوره الحضاري⁽⁹⁾.

لقد كان التاريخ أحد أهم العناصر التي استعملها البعث في بناء فكرته وأيديولوجيته؛ فهو يمثل بدءًا وجوديًا له، من جهة أن الوظيفة الأساسية التي يناضل الحزب لتحقيقها على أرض الواقع هي أن يعيد الماضي العربي الأنموذجي، المتخيل، من مجموعة عناصر متماسكة وصاعدة في كل تفاصيلها. ولذلك، بُنيت عقيدة البعث على ذلك الماضي. ومن ثم تنخرط الموسوعة، على نحو رئيس، في مشروع إعادة كتابة التاريخ على وفق رؤية الدولة وحزب البعث الحاكم الذي كان يصف نفسه بأنه "الحزب الأوحد". فالكتابة التاريخية، بالنسبة إليه، أداة جوهرية في إعادة الأحداث ورسمها من جديد. وإعادة كتابة التاريخ تعطي تسويغًا تاريخيًا يشرعن لطريقة حزب البعث في إدارة الدولة، ويجعل من أهدافه الحالية ذات أبعاد متجذرة في الذاكرة الجمعية للمجتمع.

تتكون موسوعة **حضارة العراق**، التي نشرتها وزارة الثقافة والإعلام العراقية، من 13 جزءًا. وقد كُتب على غلافها أسفل العنوان أنها من تأليف "نخبة من الباحثين العراقيين". تختص الأجزاء (1-4) بالبحث في العصور القديمة، وتهتم الأجزاء (5-9) بمباحث العصور الإسلامية، أما الجزآن (10-11) فيبحثان في العصور الحديثة، والجزآن (12-13) في العراق المعاصر.

نلاحظ من توزيع النسب أعلاه أن الحيز الأكبر أعطي للمرحلة القديمة من حضارة العراق والتاريخ الإسلامي؛ فقد نالت من المجموع الكلي تسعة أجزاء. ويبدو أن هذا الانتقاء للموضوعات كان واعيًا ومحكومًا بطبيعة السياق الأيديولوجي الذي وظف التاريخ واستثمره وأعاد تشكيله بالطريقة التي توافقت المرحلة. فقد تم الإكثار من استحضار الماضي العتيق وتمثيله، وإخراجه بالطريقة المشبعة بالروح البطولية والإنجازات العالمية الخارقة. وفي المقابل، استُبعدت وقرُمت حقب أساسية من تاريخ العراق؛ فقد جرى تفويض الحقبة الملكية واختزالها في مجموعة من الأوصاف المطلقة، من قبيل ما جاء في الفقرة الآتية: "شهدت فترة الحكم الملكي صراعًا مستمرًا بين الإنكليز وأعدائهم من بعض رجال الطبقة الحاكمة العراقية وبين الشعب وقواه الوطنية الذي كان يرفض المساومة على حقه في الحياة الحرة المستقلة. وقد ظهر هذا الصراع واضحًا في ثورة مايس 1941 وفي الانتفاضات والحركات الوطنية في 1948، 1952، 1956، التي برهنت على رفض الشعب العراقي للنظام السياسي الخاضع لمشيئة الأجنبي، وعلى كونه شعبيًا حيًا يطمح بتحقيق حياة سياسية حرة واقتصادية مرفهة واجتماعية متطورة، وكان دائمًا قوي العزيمة عظيم الثقة بالمستقبل المشرق"⁽¹⁰⁾. وقد وضعت الموسوعة كل النظام الملكي في مواجهة الشعب، وحاجت بأن التحول الكبير والانتقال إلى النظام الجمهوري جرى بفعل تلك الحركة، وذلك لإعطاء كل النظام الجمهوري شرعية شعبية مطلقة، على نحو ما يظهر في هذا النص: "عمد النظام إلى استعمال البطش في مجابهة الشعب العراقي المطالب بحقوقه المشروعة. ورغم كل ذلك فقد أجبر النظام على إجراء العديد من التنازلات لمحاولات يائسة للتخفيف من نقمة الشعب وإصراره، وأدت في النهاية إلى أن يحقق الشعب ما كان يطمح إليه في تحطيم النظام الملكي وتأسيس النظام الجمهوري"⁽¹¹⁾.

9 حضارة العراق، ج 1 (بغداد: [د. ن.].، 1985)، ص 7.

10 المرجع نفسه، ج 12، ص 8.

11 المرجع نفسه.

ثالثاً: "المفصل في تاريخ النجف الأشرف"

أثر التحول الكبير في العراق، إبان الاجتياح الأميركي للعراق في عام 2003، في طبيعة الكتابة التاريخية واتجاهها؛ فبعض الموضوعات (كالدراسات التاريخية الدينية، أو المذهبية، أو المناطقية)، التي ربما كان من الصعوبة الخوض فيها أو دراستها في السابق، لأنها تتقاطع مع رقيب السلامة الفكرية، قد فُتِح لها المجال الآن، وأخذت طريقتها الذاتية في المعالجة والمخرجات برؤية تختلف عما جرت عليه العادة سابقاً. وقد يكون نموذج موسوعة **المفصل في تاريخ النجف الأشرف** مجسماً جيداً للتعبير عن هذا التحول، على الرغم من انتماء الموسوعة، من حيث السبك ونحت العنوان، إلى إرث عراقي موسوعي في مجال الكتابة التاريخية، أسس له جواد علي، على نحو ما تقدّم. وقد بيّن المؤلف، وهو المؤرخ الأكاديمي حسن الحكيم، الطابع الموسوعي لمؤلفه، وذلك في ديباجة الجزء الأول، إذ يقول: "إنني باحث أكاديمي، لا أتناول الموضوعات من نهاياتها وإنما من بداياتها، وأحرص على التسلسل التاريخي لها وعلى المحاور الأساسية للمدينة. ولذلك، كان المجلد الأول عن النجف قبل الإسلام، حيث التفت إلى المعلومات المتداولة في الأبحاث والمؤلفات غير المعروفة، وقد بدأت هذا المشروع بعد سقوط النظام عام 2003 مستفيداً مما توفر لي من وثائق تجميعية، كنت قد صنفتها وبوبتها حسب أهميتها وتسلسلها التاريخي"⁽¹²⁾.

ومع كل ذلك التأثر، فثمة فارق واضح بين سياق **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام** وبين **المفصل في تاريخ النجف**. وقد فرض الفارق طبيعة المتغيرات الكبيرة في طبيعة نظام الحكم؛ فالفاصل ما بين عامي 1955 و2004 (أي قرابة نصف قرن) صاغ صورة مختلفة لسياق السلطة وطبيعة تحولها واختلاف رؤيتها وطريقة الحكم. فعام 2004، عام صدور الموسوعة، يمثل سياقاً سياسياً مختلفاً، ويمثل قطعة مع المرحلة التي سبقتها.

سعت موسوعة **المفصل في تاريخ النجف الأشرف** إلى تقديم سردية مترامية الأطراف عن النجف، حشدت فيها كل الروايات والأخبار؛ لإظهار مناقب هذه المدينة وبيان مكانتها، ليس على مستوى المدن العراقية المناظرة فقط، بل على مستوى العالم الإسلامي برمته. ولذلك، أرخت الموسوعة للنجف منذ مرحلة ما قبل الإسلام حتى العصر الحديث، وكان حيزها الرئيس ونواتها المركزية المؤسسة الدينية (المرجعية)، برجالاتها ومواقفها من السلطة ومن ثم منجزها العلمي⁽¹³⁾.

ركزت الموسوعة، عبر أجزائها التي تجاوزت 50 جزءاً وما تزال مستمرة في الصدور، على جملة نقاط أساسية هي مؤشر دال على مرحلة جديدة من مراحل الكتابة التاريخية في العراق؛ إذ أصبح للتواريخ المكانية والمحلية متنفس واضح للتعبير عن ذاتها، وكأنها في النهاية ردة فعل على الشمولية والهيمنة الكبيرة للدولة على الكتابة التاريخية واتجاهاتها العامة. وقد صرح المؤلف عن موقفه والسياق العام الذي تناوب على كتابته موسوعته بالقول: "بدأ اهتمامي بالنجف وتاريخها منذ عام 1991، إذ أخذت أوثق في قصاصات من الورق ما أحصل عليه من معلومات ووثائق ممنوعة من قبل النظام السابق. ولذلك فقد اضطررت إلى جمعها في صندوق، وإخفائه في حديقة الدار، ولا سيما أن 1991 هو عام الانتفاضة الشعبانية، وأن اهتمامي بالنجف وتاريخها لم يتم بمعزل عن الانتفاضة، وإنما بدوافع وأسباب مستمدة منها، وكان النظام يمنع صدور كتب عن النجف، وازداد إصراره على المنع بعد وأثناء الانتفاضة الشعبانية"⁽¹⁴⁾.

12 رزاق إبراهيم حسن، "باحث ينجز 43 مجلداً عن مدينة واحدة"، **الزمان**، 2014/6/2، شوهد في 2021/8/18، في: <https://t.ly/VX1t>

13 ينظر: حسن عيسى الحكيم، **المفصل في تاريخ النجف الأشرف**، ج 1-10 (قم: المكتبة الحيدرية، 2007).

14 حسن.

وعلى الرغم من وجود بعض الموسوعات الحضارية التاريخية عن مدن عراقية صدرت داخل الجامعات الرسمية في حقبة حزب البعث، مثل **موسوعة البصرة الحضارية**⁽¹⁵⁾، و**موسوعة مدينة تكريت**، و**موسوعة الموصل الحضارية**⁽¹⁶⁾، كانت الرؤية العامة لهذه الموسوعات الأخيرة تعاكس الرؤية التي انطلقت منها موسوعة الحكيم عن النجف؛ فالغالب على الموسوعات المنطقية التي كُتبت في حقبة ما قبل عام 2003 أنها ذوّبت مفهوم المنطقة والمدينة وتاريخها العام ضمن المفهوم (القطري) للدولة، ولم تجعل هنالك تخوّمًا وحدودًا تاريخية فاصلة أو متنازلة مع تلك الرؤية القطرية. وقد تجاوزت أيضًا المراحل التاريخية التي كانت حرجة في خلال حقبة البعث؛ فمثلاً لم تتناول مرحلة عام 1958 وما تلاها، في حين تخالف موسوعة **المفصل في تاريخ النجف الأشرف** هذا التوجه؛ إذ حاولت أن ترسم لتاريخ هذه المدينة صورة أشبه بـ "دولة المدينة" المؤثرة في كل مناحيها المختلفة والمتكاملة مع نفسها، والمؤثرة في صياغة حوادث تاريخ العراق والعالم الإسلامي. ولذلك، قدمت الموسوعة، بصورة مكثفة، وفي مواضع عديدة، طموح هذه المدينة في قيادة العراق وأخذ الدور الأول فيه؛ فلاحقت بعض الشعارات الدينية والسياسية التي كانت تكتب على الجدران في بعض الانتفاضات والثورات، وهي تعبر عن أحلام هذه المدينة "الكوزمبوليتية". فمثلاً، في سرد الشعارات التي كتبت على جدرانها إبان انتفاضة 1991، رصدت الموسوعة شعارًا حاولت إبرازه بوصفه من الشعارات المركزية التي غطت جدران المدينة، وهو يعبر عن مشروع طموح بـ "الجمهورية الإسلامية العراقية"⁽¹⁷⁾، والنجف مركزها الروحي.

وكان من بين أبرز العوامل الأساسية المحركة للأحداث وتطوراتها داخل الموسوعة العامل السياسي وهمينة السلطة على طبيعة الفعاليات الحياتية المختلفة، على الرغم من أنه من المعروف أن المحرك الأساس والصبغة العامة لمدينة مثل النجف هي الصبغة الدينية؛ فاتضح من مجمل أجزاء الموسوعة أن أطوار الازدهار والصعود، ومن ثم الركود والتواري، خاضعة لمواقف السلطة حصرًا⁽¹⁸⁾، من دون عناية بأثر العوامل الأخرى.

وفي تقديري، وبسبب ما تقدّم، إن القسم الأكثر أهمية، الذي يكشف عن أهداف الموسوعة، ليس هو القسم التاريخي أو التراثي منها، بل القسم المعني بالتاريخ المعاصر لهذه المدينة؛ فمجمل مادة الموسوعة معتمد على مصادر أو وثائق سابقة. أما في ما يخص التاريخ المعاصر للمدينة، فقد اعتمد المؤلف على روايته الشفوية عن الأحداث التي عايشها، وحولها إلى مدونة تاريخية بطريقة غلب عليها الطابع الحكواتي الذي يتداخل فيه الشخصي مع الموضوعي. ويعبر المؤلف عن تلك الفكرة، فيقول: "لعل الفترة الزمنية الواقعة بين 1970-2003 أسوأ فترة شهدتها مدينة النجف الأشرف من تاريخها الحديث والمعاصر، ومدرستها العلمية على وجه التحديد، إذ كشفت السلطة الظالمة عن وجهها الكالح وحقدتها الأسود على النجف وحوزتها وأبنائها، وكانت فترة الحرب الظالمة (1980-1988) المفروضة على الشعبين العراقي والإيراني، قد أثقلت كاهل المجتمع برمته، وخسرت مدينة النجف الأشرف كثيرًا من الأبرياء، ومن بينهم رجال الأدب

15 صدرت **موسوعة البصرة الحضارية** في عام 1989، بجزأين، الأول اختص بالجغرافيا، والثاني صدر بعنوان **موسوعة البصرة الحضارية: الموسوعة التاريخية** (يقع في 511 صفحة)، وقد غطى الكثير من الموضوعات التاريخية المختلفة، فهناك مباحث عن التاريخ السياسي، والتاريخ الثقافي، والتاريخ العمراني، وتاريخ الصحافة، والحياة الثقافية والصحية، والنوادي والجمعيات والأحزاب، والانتفاضات، كما تناول تاريخ البصرة، منذ الفتح الإسلامي حتى عام 1988. وقد أسهم في تأليف هذه الموسوعة عدد كبير من أساتذة جامعة البصرة يومذاك.

16 صدرت **موسوعة الموصل الحضارية** في الفترة 1991-1992، عن جامعة الموصل. وقد شارك في كتابتها أساتذة من الجامعة. وهي تتوقف عند سنة 1958. وقد صدرت في خمسة أجزاء، يتناول الأول مباحث تتعلق بجغرافية الموصل وتاريخها القديم وحضارتها. أما الجزء الثاني، فيختص بتاريخ الموصل في العصر الإسلامي. ويتابع الجزء الثالث الحياة العلمية والأدبية والفنية في الموصل منذ الفتوحات الإسلامية حتى السيطرة العثمانية. ويعتني الجزء الرابع بتاريخ الموصل في الحقبة العثمانية (1516-1918). ويتابع الجزء الخامس والأخير التاريخ الحديث للموصل، منذ الاحتلال البريطاني عام 1918 حتى النصف الثاني من القرن العشرين.

17 الحكيم، **المفصل في تاريخ النجف**، ج 7، ص 121.

18 المرجع نفسه، ج 7، ص 130-160.

والفكر. وقد أضفت الانتفاضة الشعبانية عام 1991 خسائر أخرى وقادت مدينة النجف إلى كارثة كبرى [...]، وكنا قد عاصرنا حالة الإخفاق العلمي والأدبي في مدينة النجف الأشرف وتحجيم دورها القيادي للعالم الإسلامي" (19).

نتائج ختامية

لاحظنا، عند المعاينة الإجمالية للنماذج الموسوعية التاريخية المختارة، أن طبيعتها التنظيمية لم تنهج في عرض موادها ترتيباً هجائياً، وإنما رتبت على أساس موضوعي. وقد يكون السبب في ذلك النهج أن هذه الموسوعات تتطلب وقتاً طويلاً يتجاوز حدود الجيل الواحد إلى أجيال متضافرة، وعملاً مؤسساتياً يتجاوز حدود الحكومات المتعاقبة ونظرتها المزمته في إعادة كتابة التاريخ ومشاريعه. لذا، كانت الموسوعات الموضوعية وسيلة ممكنة لتحقيق تنفيذها على المستوى الشخصي، وكذلك وجدت فيها الدولة وسيلة سريعة ومباشرة لتنفيذ رؤيتها وأيديولوجيتها الحاكمة.

إن تحول الموسوعات التاريخية من الشمولية إلى المناطقية قد أثر فيه سياق تاريخي، يتمثل بطبيعة نظام الحكم وأيديولوجيته في إدارة الدولة والنظرة إلى العلوم الإنسانية.

إن الحديث عن موسوعة أو دائرة معارف يتم إنتاجها تحت إشراف الدولة في العراق في الأمد المنظور قد يكون غير وارد؛ فالأمر على ما يبدو يحتاج إلى دولة مستقرة غير هشة في خطابها ومتفقة على مجموعة ثوابت. ومن الممكن التحقق من هذه الفرضية عند مقارنة هذا الواقع بدول محيطية أو إقليمية أنتجت موسوعات تحت إشرافها ذات منحى تاريخي، وشكلت حضوراً بارزاً في مجالها كما في المشاريع الموسوعية التاريخية في سورية ومصر وإيران وتركيا.



19 المرجع نفسه، ج 7، ص 6. ومن الممكن ملاحظة هذه الرؤية في كثير من النصوص، من ذلك مثلاً: "أن حزب البعث العربي الاشتراكي، الذي تولى زمام السلطة في العراق في المدة الواقعة بين عامي 1968-2003، تقاطع في أهدافه ومبادئه وسياسته مع مدرسة النجف وحوزتها العلمية. ولعل ما جرى من أحداث في أثناء الحرب العراقية - الإيرانية (1988-1980) والانتفاضة الشعبانية عام 1991 يمثل انعطافاً جديدة في العلاقة بين السلطة من جهة وبين الحوزة العلمية في النجف الأشرف من جهة أخرى". حسن عيسى الحكييم، **المفصل في تاريخ النجف الأشرف: مدرسة النجف الأشرف في التاريخ الحديث والمعاصر**، ج 8 (قم: المكتبة الحيدرية، 2008)، ص 3-4.

References

المراجع

- . التاريخ العربي وتاريخ العرب: كيف كُتب وكيف يكتب؟ الإجابات الممكنة. إعداد وتنسيق وجيه كوثراني. الدوحة/ بيروت: المركز العربي للأبحاث ودراسة السياسات، 2017.
- . الجميل، سيار. المجادلة التاريخية: فلسفة التكوين التاريخي: نظرية رؤيوية في المعرفة العربية الإسلامية. بيروت/ عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، 1999.
- . حضارة العراق. بغداد: [د. ن.].، 1985.
- . الحكيم، حسن عيسى. المفصل في تاريخ النجف الأشرف. قم: المكتبة الحيدرية، 2007.
- . _____ . المفصل في تاريخ النجف الأشرف: مدرسة النجف الأشرف في عصر القمة. قم: المكتبة الحيدرية، 2008.
- . علي، جواد. تاريخ العرب قبل الإسلام. بغداد: مطبعة التفيض، 1951-2519.
- . _____ . المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام. ط 2. بغداد: جامعة بغداد، 1993.
- . _____ . أبحاث في تاريخ العرب قبل الإسلام. دراسة ومراجعة نصير الكعبي. بيروت: المركز الأكاديمي للأبحاث، 2011.